تحقيق مخطوطة (ورق الشام)



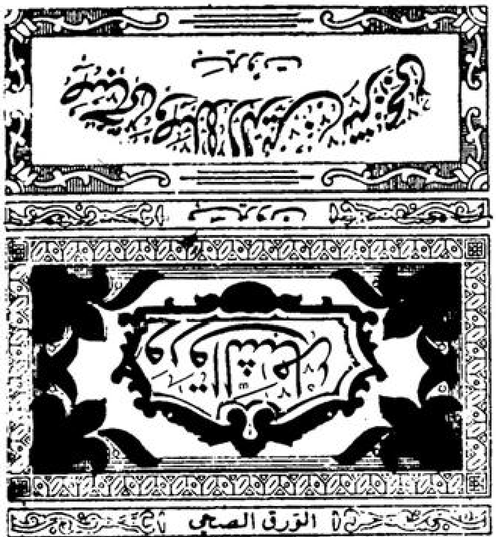
■ هذا العمل العظيم المتواضع الذي استطعنا انجازه بعد جهد جاهد جهيد، هو أول تحقيق علميّ - ولا فخر - لمخطوطة «ورق الشام» الممتاز على سائر الماركات بالنسبة لنظافته ونقاوته والذي يتعطش لتدخينه عشّاق العربية ومدخّنو التضامن العربي من المحيط اليعربي الى الخليج اليغربي.

وقد توخينا في هذا التحقيق الدقة والموضوعية والأمانة العلمية طبقاً لقواعد التحقيق المنهجي التي أرسى دعائمها كلٌ من المرحوم (محمد محيي الدين عبدالحميد) في تحقيقه لكتب ابن هشام، والمرحوم (عبدالسلام محمد هرون) في تحقيقه لكتاب سيبويه، والرفيق (رئيس قسم التحقيق) في تحقيقه مع المتهمين الماثلين أمام مخابرات الجامعة العربية منذ الثورة العربية الكبرى بقيادة (الجنرال اللنبي) الذي حرّر فلسطين المحتلة من جيش الاحتلال العثماني قبيل وعد بلفور المشؤوم.

ونحن إذ نقوم بهذا العمل الهام إنما نكون - بلا شك - قد أسدينا خدمة عظيمة - والأجر على الله - للأمة العربية الغالية غلاء الأسعار، إذ أسهمنا في إحياء شيء من موات التراث العربي. وعلى هذا فحقوق الطبع والنشر محفوظة لأنّ (مَنْ أحيا أرضاً مواتاً فهي له) كما يقول التراث نفسه، وقد أحيا أحدُهم أرضاً مواتاً فصارت له طبقاً للتراث العربي. وبعد حين من الدهر أخذوا منه بعضها وهو راضٍ طبقاً لقانون الإصلاح الزراعي، ثم مات هذا القانون عندما نال أشاوسُ الإقليم الشمالي استقلالهم المجيد عن (الوحدة العربية) وأصبحوا (عضواً) معترفاً به، ثم نُفِخَ في الصُّور وجاء يوم البعث والنشور فصدر القانون من جديد وصادروا كل أرضه (شبراً شبراً). فراجع وزارة الإصلاح شاكياً ووجد على بابها شعاراً يقول: سنحرّر أرضنا (شبراً شبراً). وسألهم أن يعيدوا لعياله أشباراً من أرضه المغتصبة، فقالوا له: أنت متضرّر.. ولكن قرارات الثوّرة العربية لا يمكن العودة عنها لأنها قطعية، ألا ترى أننا كنا وما نزال وسنبقى نرفض سياسة كيسنجر (شبراً شبراً)؟؟ فقال لهم: لكن الرّاسخين في العلم يقولون إن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، فقالوا له: العلم رجعيٌ وإن رفاقنا قد خلّفوه وراءهم وتقدموا (شبراً شبراً). وفقد ابنه في إحدى معارك الثورة فقالوا له: إن ابنك استُشهد دفاعاً عن أرضه (شبراً شبراً). فشكرهم على

خطاب تاريخي

عبدالحميد الخلف الابراهيم



غلاف مطبوعة بيروت

هذا التكريم (شبراً شبراً) وقرّر أن يشحذ من المناصلين شيئاً من أرضه (شبراً شبراً).

وعلى كل حال فإن «ورق الشام» ورقٌ تراثيٌّ رفيع عريق يمتد من أعماق التاريخ، حيث المجد والحسب الى آفاق المريخ حيث رواد الفضاء العرب الذين وُلد واحد منهم في صحراء (نيفادا) فصار سلطاناً أميركياً. ووُلـد آخر في صحراء (سيبيريا) فأصبح فارساً روسياً.. وسيولدون.. ويولدون.. ويولدون كما يقول (محمودٌ درويشٌ ـ عضو المجلس التنفيسي) على حد تعبير (ناجي العلي) بطل فيلم (نور الشريف).

وكانت مخطوطة «ورق الشام» قد صدرت في طبعتين تجاريتين في كل من بيروت (عاصمة الصحافة العربية) وعمّان (عرّابة الصحافة العاصمية) ونحن هنا ـ كما أسلفنا القول ـ نقوم بتحقيقها التحقيق الممتاز بمباركة مسجلة لأول مرة في التاريخ وعين الحاسد تبلى بالعمى.

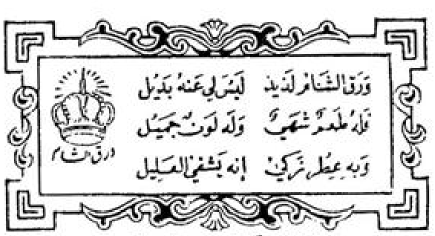
ويقال ـ والعهدة على الراوي فلا تصدق كل ما تسمع ولا تسمع كل ما يقال ـ ان هذه التحفة التراثية قد طبعت في بغداد أيضاً لكن الحصار القومي العربي للأمة العراقية الخاسئة المبتلاة بالقادسية وأم المعارك وثورة الزنج ومعركة الزّاب يمنع التأكد من ذلك وليخسأ الخاسئون...

ثم ان استجابتنا للاجماع العربي في قطع العلاقات المقطوعة أصلاً مع تلك الأمة العدوانية المعادية يجعلنا غير متأكدين أكانت هذه الطبعة تجارية أم علمية؟ ولا ندري ما هي الصفقات التجارية أو الانسانية التي عقدت بشأنها مع الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن الذي يسهر أعضاؤه غير الدائمين ـ والدوام للّه ـ في سبيل توطيد النظام العالمي الجديد الذي يوطّد دعائم الأنظمة التقيّة الفاضلة ويحرّم على الشعوب المتخلفة المناضلة أن تدخل في مناقصة أو مفاضلة لاستدراج عروض أو استجرار مجرور من (الماء الثقيل) الذي يقطع الأمعاء ويشوي الوجوه كأنّه المُهل وفي هذا حفاظ مشكور على (المصاري) و(المصارين) العربية التي يتغوّطها النفط وتتغوّطه فوق الأصول التراثية لهذه (العُمّة).

والحق أنه لولا التصحيف والتحريف والسهو الذي حفلت به الطبعتان التجاريتان للمخطوطة، لما تكلفنا عبء هذا العناء وسلكنا سبيل الباحثين والعلماء في تحقيق المخطوطة الغنّاء. وأما احتمال أن تكون مطبوعة بغداد علمية لا تجارية فأمرٌ لا يمنع مواصلة هذا العمل الرهيب. فقد سبق لواحدٍ من باحثينا ـ هو الأستاذ مصطفى الحدري ـ أن حقّق أحاجي الزمخشري عام (١٩٦٩) ونشرها في حماة تحت عنوان (الأحاجي النحوية) فلم يَحُلْ عملُهُ هذا دون قيام الدكتورة بهيجة باقر الحسني بتحقيق المخطوطة نفسها ونشرها في بغداد عام (١٩٧٣) تحت عنوان (المحاجاة بالمسائل النحوية) ربما لأن الأمة العربية تحبّ الألغاز، فإذا لم تستطع استيرادَها أو تبادلَها مع الآخرين فانها تقوم بتصنيعها. وسأقوم أنا لاحقاً بتفسير بعض ألغاز المعجم العربي تلبية للنهم العربي في هذا المجال.

ثم إن إقبالَ الناس على الطبعات التجارية المغلوطة ايثاراً لجيوبهم،

وإعراضهم عن الطبعات العلمية الثمينة خوفاً من الأرقام المثبتة على أغلفتها . . يجعلنا نحاول معالجة إدبارَهم هذا بتقديم طبعةٍ تخلو من الغلط وتأخذ بعين الاعتبار مستوى الدخل القومي وتنظر بعين الاحمرار الى مستوى الدخل الوطني وتشمل بعين الاحتقار مستوى الدخل الفردي الذي ينحدر باسم القضية الى الحضيض وتنحدر القضية معه الى الأحضّ . . وهناك خطرٌ داهمٌ يتهدد اللسان العربي الطويل فغالبية الأغلاط العالقة بهذا اللسان الذَّلق مصدرها الإعراض عن التراث الأصيل والولوغ في اثم الحداثة التي ترتع وتنخر وتبول وتهدد أمتنا بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا لم يتدارك الغيارى أنفسهم لايقاف الانهيار الكبير. وهذا (الانهيار الكبير) كتاب في تقريظ وحدة (١٩٥٨) أهداه مؤلفه (محمد أحمد عبدالمولى) إلى الزعيم الوحدوي الخالد: بطرس بطرس غالي باشا (إي والله) ولكن لا عجب فإن (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) أُهدِيَ إلى مولانا الفاروق العظيم.



من لامية الورقشامي . مطبوعة بيروت

ولكي نبرهن على صحة ما قلناه آنفاً نشير في ما يلي الى بعض ما وقع من عثرات في مطبوعتي «ورق الشام» التجاريتين:

أولاً ـ في مطبوعة بيروت ورد تصحيف بسيط أدى الى انقلابٍ خطيرٍ في معنى بيت من الشعر في احدى القصائد العصماء الواردة في «ورق الشام»، وهذا التصحيف الخطير مجرد نقطة صغيرة لا غير بحجم رأس الدبوس ولها أهميتها الشديدة، فإن الفرق ثخينٌ جداً بين (العليل) و(الغليل) ولا معنى لقول الشاعر:

وبه عطر زكيّ إنّه يشفي العليل!

فإنه لا يشفي (ولا حاجة) بل انه ـ بما فيه من حروف العلة ـ يجعل الصحيح عليلاً فكيف بالعليل؟؟ وحكومات الدخّان نفسها تكتب عليه بالعربي الفصيح: (ضارٌ بصحتك ننصحك بالامتناع عنه) والأصح أن تكون العبارة: (يشفي الغليل) بالغين المعجمة لا بالعين المهملة، ولا يجهل أي فهلوي عربي أو حتى ربع مثقف أن عبارة (شفاء الغليل) عبارة دسمة على أفواه الأدباء العرب، إذ يستعملونها بكثرة عنواناً لكتبٍ قومية ودينية وأدبية هامة منها كتاب (شفاء الغليل في البحث عن الذات في إسرائيل) تأليف أنور باشا القحبات، وكتاب (شفاء غليل الرفاق في تدمير أسلحة العراق) تأليف حفر الباطن، وكتاب (شفاء غليل الحاخام في فتح الأندلس للسلام) تأليف موسى بن شامير وطارق بن مدريد، وكتاب (شفاء غليل الأنام في صناعة الأوتي آ والبانام) تأليف حلف الأطلسي، وكتاب (شفاء غليل عرب الدول العظمى في محاصرة الجماهيرية العظمى) تأليف بطرس البند السابع من مجلس الأمن، ونرجو أن يبقى الكتاب الأخير مخطوطاً . . وهذا غيضٌ من (غيظ) وفيضٌ من بيض فإذا فُقِسَ يخرج الدجاج العربي في مظاهرة للاستنكار والتنديد ثم للإستنكاف والتنظيف . .

أما كيف يشفي «ورق الشام» الغليل فأمرٌ لا يماري فيه إلا الجهلة المختوم على قلوبهم، أما العارفون ببواطن الأمور فيعلمون علم اليقين أن مدمن سواد عيون الأمّة . . إذا سَحَبَ نفساً من محتويات «ورق الشام» ينتشي وينبسط انبساط (المنخّل اليشكريّ) فينسى الشُّوَيْهَةَ والبعير ويصير رب الخَوَرْنَق والسَّدِير، ويشطحُ الى عالم آخر ويتخيل أنّ الأمة العربية توحدت وأنّ اسرائيل تبعثرت وفلسطين تحرّرت كما تحرّر جنوب لبنان وشمال المغرب وغرب الأردن وشرق الإمارات وجنوب شرق العراق وجنوب السودان وجنوب اليمن وجنوب دولة أخرى (جائزة ألف ليرة لمن يعرف اسمها). ولن يعود هذا المدمن من شطحه إلا إذا اغتسل من الجنابة فوجد أن كل جنوب على حاله والهتافات على حالها والديموقراطية الشعبية على حالها والشعب الفادح على حاله والحال من بعضه.

ثانياً ـ في مطبوعة عمّان ضُبط الفعل المضارع متلبساً بضم ياء المضارعة ضماً خاطئاً هكذا (يُشفي) في قول الشاعر:

جربوه تعرفوه إنه يُشفي العليل (كذا)!!

وهذا الضم للياء لا يجوز شرعاً إلا إذا كان الماضي من الفعل رباعياً (أشفى) بدلاً من الثلاثي (شفى) وهذا الـ(أشفى) له معنى آخر سوى شفاء الغليل أو العليل، جاء في (لسان العرب): (يقال: أشفى على الهلاك إذا أشرف عليه، وفي الحديث: فأشفوا على المرج أي أشرفوا، وأشفَوْا على الموت . . . الخ) كذلك قال ابن منظور الافريقي المصري المولود في تونس الخضراء التي كانت تُسمى سابقاً (افريقية)، وعندما هجرها هذا المنظور الى مصر سماه أهل مصر (الافريقي) وعندما اكتسب جنسية (أم الدنيا) لقبوه (المصري)، تماماً كالجامعة العربية التي هاجرت من تونس الى مصر فأصبحت عربيةً. وكان بيرم التونسي قد هاجرالهجرة نفسها وظلّ تونسياً مع أنّ جاره المُصْراتي هاجر الى بلاد المشارقة فأصبح الحاكم بأمر الله في البرلمان. وهاجر بنو هلال الى التّغريبة وغنّت أم كلثوم (هجَرتك) ولم تهاجر. وهاجر فريد الأطرش الى القاهرة وغنّى بالجيم المصرية (يا هاجرني). أما (هَاجر) فهي أمّ العرب المستعربة. وهاجرتِ العربُ العاربة بعد خراب سدّ مأرب وهاجر أهلُ الشام الى بلاد المهجر وهاجرَ الماركسيون حاجّين الى فلسطين من كل فجٍ عميق زرافاتٍ ووحداناً وأفواجاً أفواجاً، وما زالت دائرة الهجرة والجوازات مفتوحةً على الآخر، وهجرتِ الطيور أعشاشها، وهجرتني حبيبتي فبكيت (كان في ودّي أن أضحك لكني بكيت).

ثالثاً ـ تميزت مطبوعتا بيروت وعمان من الغيظ بنقصٍ كاسحٍ إذ خلتا معاً من النصوص الكاملة للقصائد النادرة التي تزينت بها مخطوطتنا الشّمّاء، وهي قصائد عصماء كبيرة النّفع فيها ما يبهج البصر ويُشنف السمع. وبشيءٍ من الطرح والجمع يمكن أن تكون قصائد شجيةً لا تقل دموعاً عن المعلقات والمفضليات والأصمعيات والوحشيات والهاشميات والروميات والعراقيات وبقية آيات الشعر العربي الكبير فمن ذلك قول الشاعر (الورقشامي):

أيُّها الحرُّ النّبيل دعكَ من قالَ وقيل
أمةُ العُرْبِ أقامَت وحدةَ الصفّ الوبيل
واستقامَت ثم قامَت من مقاماتِ المَقِيل

ثم قالت بلسانٍ عربيٍّ مستطيل:
ورق الشام لذيذٌ ليس لي عنهُ بَديل
فلهِ طعمٌ شهيٌّ وله لونٌ جميل
وبهِ عطرٌ زكيٌّ إنه يَشفِي الغليل

*

أيها الأعرابُ هُبّوا هبّة الشّعب الأصيل
هبّة القوم السُّكارى في دُجى الليلِ الطّويل
عاقِروا خَمرَ المنايا واشربُوا نَخْبَ القتيل
واكسروا الكأس برفْقٍ واحذروا نشرَ الغَسيل
رَبَطَ السّــدرُ خُيولَ الرُّوم طُرّاً والنّـخيل
فاعـزِفُـوا لحْنَ النّـشيدِ الوطَنيِّ السَّلْسَبيل:
(يا حبيبي لا تَلُمني ذَهَبَتْ شمسُ الأصيل
نحنُ مِنْ مَاءٍ مَهينٍ والعِدا مَاءٌ ثَقيل)

وهذه اللامية الورقشامية طويلة قد نَعِفُّ عن رواية بعض عوراتها التي ستخـدش حياء الجامعات الآغاديميّة والجامعة العربية (موديل الخفّر). وهو ما نخشى عواقبه.. والحقّ أني فكرت أن أقصر تحقيقي على هذه القصائد القومية الفادحة اسوةً بما فعل الدكتوران العراقيان: يحيى الجبوري وحاتم الضّامن، إذ اكتفيا بتحقيق قصائد مجهولةٍ من مخطوطـة (منتهى الـطلب من أشعـار العـرب) ونَشَرا هذا التحقيق النّاقص في مقالٍ واحدٍ موحّدٍ في العدد الثالث من المجلد الثّامن من مجلّةِ (المورد) العراقية في خريف (١٩٧٩) الأغرّ.

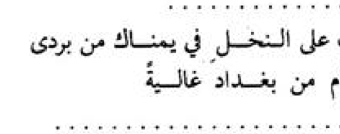
ولكي لا ولئلّا يظنّ الغالي بطرس الأكبر اننا خرقنا قرارات المجلس ذات البنـد السابع وعقدنا صفقاتٍ تجارية مع الأشقاء الأشقياء في العـراق المحـاصر في شعب أبي طالب.. نُبيّن لحضرتـه أن المجلة المذكورة دخلت بلادنا سهواً أيام الوحدة الاندماجية بين اليمين المشبوه واليسار الصالح عندما قال الشاعر المنسي:

....

واسكُبْ على النخـلِ في يمنـاك من بردى
واجـلب الى الشـام من بغـداد غاليـةً

....

وعلى كل حالٍ فانهما انفصلا كما انفصل محسّن عن ابراهيم والخضر عن موسى وكـما انفصل الاقليم الشمالي البطل عن الاقليم الجنوبي المحتلّ في ثورة الثامن والعشرين المجيدة، وأخذ كلٌّ حلاله فأصـدر الدكتور الجبوري حلالَه في كتاب مستقل ومعترَفٍ به دولياً عنوانه: (قصائد جاهلية نادرة) وأصدر الدكتور الضّامن ما لَهُ في كتابٍ



من لامية الورقشامي
. مطبوعة عمّان

انفصاليّ مجيدٍ عنوانه (قصائد نادرة) والفرق بينهما في حدود (جاهلية).

وبعـد التـأمّل البالغ والتفكير العريض والمشاورات الشديدة مع وزراء الخارجية والمنـدوبين الدائمين الضيوف قررتُ بالإجماع دعم



غلاف مطبوعة عمّان

المخطوطة الورقشامية لتصدر كاملة تقريباً، وواصلتُ الليل بالنهار ليكون عملي متكاملاً تقريباً في خدمة تراثنا السحيق تقريباً، ووحدة أمتنا من مضيق هرمز في خليج فارس الى مضيق جبل طارق في مؤتمر السلام تقريباً. ورأيت في ما يراه النائم بعد أن سكتت شهرزاد عن الكـلام المباح أن من الظلم القُراح أن نحرم القراء العرب من هذا النصّ الأدبي السمـين ـ بالسين المهملة ـ فليس بالخبـز وحـده يحيا الإنسان، إذ لا بدّ له من بعض اللحم والفواكه والخضراوات وشيء من الشِّعر العامودي ـ بالألف العامودية ـ والشِّعر الحديس ـ بالسين المهملة ـ والشِّعْر المنثور والنَّثر المشعور والشِّعر المنثور والنَّثر الفني الذي تحرّر بعد العهد العثماني من السجع والجناس والطباق والمقابلة وسائر مصنـوعـات عبـدالله بن المعتزّ، وصار فيه نَفَحات قدسية ونَفْحات حماسية من الفكـر المنـاضل والعلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون والطبقـة العـاملة وديموقراطية البروليتاريا وتحالف قوى شعب اللّه المختار لاستثارة حميّة الكادحين ونخوة الصراع الطبقي والدخول في عهد الثورة الشعواء التي فجرها عطوفة الشريف مكماهون وواصلها سعادة نَوري السّعيد، حيث تمّت خلال هذا العهد الشامخ جلسة الاستـلام والتسليم الأولى (بـين الـظلام العثمـاني من جهة والأنوار الأوروبيّة من جهة أُخرى ـ بفتح الهمزة ـ ثم جلسة الاستلام والتسليم الثـانية (بـين الصليبيين، ووعـد بلفور المعلوم) ثم جلسة الاستلام والتسليم الثالثة وصولاً الى الرابعة.. ثم السابعة.. فالتاسعة.. في العصر الشـوروي والازدهار النِّفطي والاستقرار السياسي والمباحثات المتعددة الجنسيات في أيّامنا العامرة بالأفراح دامت أيّامكم والعياذ باللّه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. (تصفيق حادّ). □